مع المصطفى

فى دار مبعثه

- السابقون الأولون
- والليل إذا يغشى
- أم يقولون افتراه ؟
- الحجرة إلى الحبشة
- الحصار . . وعام الحزن

obeikandl.com

أصبحت مكة غداة ليلة القدر . وليس على وجه الأرض كلها مَن يدين بالإسلام غير النبي المصطفى . وزوجه « خديجة بنت خويلد » ؛ أم المؤمنين الأولى .

ثم آمن ثلاثة آخرون :

اثنان منهم فتيان فى مستهل الصبا ، كان محمد عليه الصلاة والسلام ، ينزلهما من بيته وقلبه منزلة الأبناء :

« على بن أبى طالب »

وقد كان محمد ، بعد زواجه من خديجة واستقرار حياته المادية ، قد ضم إليه « عليًا » ليخفف العبء عن أبيه العم أبى طالب ، برًا بعمه ووفاء ببعض حقه عليه ؛ وهو الذى كفله بعد وفاة جده عبد المطلب ، وأسبغ عليه من رعايته وحنانه ما لم يحظ به بنوه .

و « زيد بن حارثة » ولده بالتبنى .

وكانت أم زيد قد خرجت به صبيًا تزور أهلها ، فضل منها فى الطريق فالتقطه من باعه رقيقاً فى إحدى أسواق العرب . واشتراه « حكيم بن حزام بن خويلد » لعمته السيدة خديجة ، فطابت لزيد الحياة فى كنف السيد الكريم « محمد بن عبد الله » .

حتى جاء أبو زيد ، حارثة بن شرحبيل الكلبى ، يلتمس ولده بعد أن طال بحثه عنه ، فترك محمد الأمر كله لزيد : إذا شاء بقى حيث هو فى بيت محمد على الرحب والسعة ، وإن شاء ذهب مع أبيه حارثة . .

واختار زيد محمداً الذى ما لبث أن انطلق إلى الملأ من قريش ، فأشهدهم على أن زيداً ولده بالتبنى .

أما السابق الثالث « أبو بكر بن قحافة » فكان له وضع آخر ،

إذ ليس هو من عشيرة المصطفى وذوى قرباه ، ولا كان فى فترة الصبا الغض كعلى وزيد . وإنما هو من رجال بنى تيم بن مرة بن كعب ، وقد بلغ سن الكهولة وأخذ مكانته فى المجتمع القرشى سيداً مهيباً وقوراً ، مشهوداً له بالفضل والمروءة ودماثة الخلق ورجاحة العقل . وكان أنسبَ قريش لقريش وأعلم بأخبارها . فلما دخل فى دين الإسلام بمجرد أن دعاه المصطفى إليه ، توقعت قريش أن يكون لهذا الأمر ما بعده .

وصح ما توقعت : استطاع أبو بكر بجاذبية شخصيته ووقار حلمه ونضج رأيه ، أن يكسب للدين الجديد خمسة من رجال قريش الأعلام :

عثمان بن عفان الأموى ، والزبير بن العوام بن خويلد الأسدى المخزومى ، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص الزهريان ، وطلحة ابن عبيد الله التيمى .

فهؤلاء النفر الثمانية ، هم السابقون الأولون الذين اختاروا لواء المصطفى ، وبدأ بهم الإسلام خطوته الأولى فى الطريق الطويل إلى النصر .

ومنهم تأسست الكتيبة الأولى لحزب الله فى مستهل الدعوة ، ليلقى العصبة الباغية من المشركين وحزب الشيطان ، فى صراع مرير بين حق وباطل . . .

* * *

ولقد تهيب المصطفى عليه السلام فى أوائل المبعث ، أن يلقى قريشاً بدعوته جهراً ، فأسرع بها إلى من آنس فيهم الاستعداد لقبولها والإيمان بها .

وما أسرع ما استجاب له الموالى الأرقاء الذين وجدوا فى الإسلام ملاذاً لهم من الوضع المهين الذى مسخ آدميتهم وأهدر إنسانيتهم !

وكذلك أسلم عدد من أحرار المكيين رجالا ونساء .

وكانوا فى أول الأمر إذا أرادوا الصلاة تحاشوا الكعبة ، وتحاشوا كذلك

أن يصلوا فى بيوتهم .وذهبوا فى الشعاب فاستخفوا بصلاتهم عن قومهم . إذ كان البيت الواحد فيه من يؤمن بدين الإسلام . وآخرون من أهله وعشيرته على دين الآباء .

لكن أمر الإسلام لم يكن بحيث يخفى طويلا بعد أن فشا . وأمر الله رسوله فبادى قومه به . ولعلهم استخفوا به أول الأمر وكبر عليهم أن يُظهروا غيظهم منه . حتى ذكر المصطفى آلهتهم وعابها . فناكروه وأجمعوا خلافه وعداوته . إلا القلة التى آمنت منهم .

ماذا تستطيع قريش لمثل هؤلاء السادة الأحرار من صميم بيوتها ؟ لئن أعياها أن تثب عليهم أو تنالهم بأكثر من السخرية والأذى والمقاطعة . فقد بقى الموالى المستضعفون تنفس فيهم عن قهرها وغيظها ، وتتسلط عليهم بأبشع ضروب التعذيب والفتنة .

ولم يفتها وهى ترى مواليها يسارعون إلى الاستجابة للإسلام ، أن تلمح ما وراء هذه البادرة من خطر يهدد الوضع الطبقى الذى قامت عليه حياة قريش جيلا بعد جيل . .

كما لم يفتها أن تلمح ما يتطلع إليه الأرقاء من استرداد آدميتهم المهدرة ، بهذا الدين الجديد الذى يقرر أن الناس جميعاً إخوة ، ويبطل عبودية المخلوق لغير خالقه .

وقامت قائمة قريش ، وائتمروا فيما بينهم فوثب كل حى من أحيائها على من فيه من الموالى الذين أسلموا . فكانوا إذا حميت الظهيرة يخرجونهم إلى بطحاء مكة فيطرحونهم على ظهورهم . ثم يأمرون بالصخرة الضخمة فتلقى على صدر الرجل ويقول له سيده :

« لا تزال هكذا حتى تموت ، أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى »

فيقول العبد المؤمن وهو فى هذا البلاء :

أحَدٌ . أحَد ! »

حدثوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ بآل ياسر وقد أخرجهم سادتهم من بنى مخزوم إلى بطحاء مكة . وتفننوا فى تعذيبهم . فلم يستطع المصطفى أن يدفع البلاء عن هذه الأسرة المؤمنة . فقال لهم : « صبراً آل ياسر » !

وصبروا حتى استشهدت سمية وهى تأبى إلا الإسلام .

ورووا أن أبا بكر مرّ بجارية لبنى عدى بن كعب ، وعمر بن الخطاب — قبل إسلامه — يعذبها على جمر الصخور الملتهبة بالقيظ ، ليفتنها عن دينها . وظل يضربها حتى تعب وملّ ، فكف عنها وهو يقول لها : إنى أعتذر إليك . فلم أتركك إلا عن ملالة !

وأنقذها أبو بكر الصديق : ألح على عمر . حتى باعه إياها فأعتقها لوجه الله . كما أعتق عدداً غيرها من المستضعفين بعد أن اشتراهم .

قال له أبوه « قحافة » يحاوره :

— إنى أراك يا بنى تعتق رقاباً ضعافاً ، فلو أنك فعلت ما فعلت ، أعتقت رجالا أشداء يمنعونك ويقومون دونك ؟ »

رد أبو بكر : يا أبت : إنى إنما أريد ما أريد لوجه الله .

فيُروى أن هذه الآيات نزلت فيه :

« واللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * والنَّهارِ إِذَا تَجَلَّى * ومَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى * فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى واتَّقَى * وَصَدَّقَ بالحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لليُسرى * وأَمَّا مَنْ بَخِلَ واستَغْنَى * وكَذَّبَ بالحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ للعُسْرى *

وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى * إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى * وإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ والأُولَى * فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى * لاَ يَصْلاَهَا إِلاَّ الأَشْقَى * الَّذِى كَذَّبَ وتَوَلَّى * وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى * الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى »

* * *

أسلم « خباب بن الأرتّ » وأعيا قريشاً أن تفتنه عن دينه .

وكان من أمهر العبيد الصناع ، يعمل السيوف بمكة للسادة القرشيين ، وقل أن يجدوا من يدانيه حذقاً للصنعة وتواضعاً فى الأجر .

واحتاج فى محنته إلى مال يفتدى به نفسه ، فذهب إلى السيد « العاص بن وائل السهمى » يتقاضاه أجر سيوف عملها له ، فنظر إليه السيد الشريف فى ازدراء وسأله ساخراً :

« أليس يزعم محمد صاحبكم ، هذا الذى أنت على دينه ، أن فى الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب وفضة ؟ »

رد « خباب » وهو لا يدرى ما وجه السؤال : « بلى »

قال العاص بن وائل :

« فأمهلنى إلى يوم القيامة يا خباب . حتى أرجع إلى تلك الدار الآخرة فأقضيك هنالك حقك . فوالله لا تكون أنت وصاحبك محمد يا خباب ، آثر عند الله منى ولا أعظم حظًّا من ذلك » .

وانصرف خباب ، وعوّضه على الله سبحانه .

وراح العاص بن وائل يباهى فى مجامع قريش بحيلته الذكية الماكرة

التى أصاب فيها عصفورين بحجر واحد : أكل مال خباب عقاباً له على إسلامه . واستهزأ بدين صاحبه !

ولم يمض وقت طويل . حتى كان المصطفى يتلو فى مكة من وحى ربه :

« وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَىُّ الفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً * قُلْ مَن كَانَ فِى الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ، حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا العَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا * وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى . والبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا * أَفَرَأَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا * أَطَّلَعَ الغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا * كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ العَذَابِ مَدًّا * وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا * واتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا »

صدق الله العظيم

عجب وأى عجب ؟

أيؤثر « محمد » بن عبد الله » بالنبوة وما عرفت له قريش مالاً ممدوداً ولا ولداً معدوداً ولا جاهاً مشهوداً . وإن عرفت له شرف المنبت وكرم الخلق ونقاء السيرة . ولم يفتها التنبه لما حف به . منذ وُلِدَ . من مخايل مجدٍ له منتظر ؟

أينزل عليه هذا القرآن . ولا ينزل على رجل عظيم من أصحاب الثراء والولد والنفوذ والسلطان ؟

لقد أمضى شبابه كله لم يجمع مالا ، ولا تهالك على ما كان شباب قومه يتهالكون عليه من مناصب السلطة ومراكز الجاه فى المجتمع القرشى بأم القرى . . .

ثم لما بلغ مبلغ الرجال آثر العزلة ، وانسحب من ضجيج المعترك إلى خلوته بغار حراء .

ولا تذكر قريش أنه شارك فيما يشغلها من صراع على مراكز القوى ، إلا يوم جددت بناء الكعبة ، قبل المبعث بخمس سنوات ، واحتدم الخلاف بين قبائلها وبيوتها : أيها يكون له شرف نقل الحجر الأسود ؟ حتى لاحت نذر الحرب .

ثم اتفقوا فيما بينهم على تحكيم أول من يدخل باب البيت الحرام ، فلما أقبل « محمد » فكان أول داخل ، هتفوا جميعاً :

« هذا الأمين . رضينا حكمه »

وبسط الأمين رداءه وتناول الحجر بيده فوضعه فيه ، ثم أمر قبائل قريش فأخذت كل قبيلة بطرف من أطراف الرداء ، حتى إذا بلغ موضع الحجر ، رفعه بيده فوضعه هناك .

وانحسم الخلاف . . .

بعدها . لم يعد المجتمع المكى يرى محمداً فى الزحام .

حتى مضت خمس سنين وخرج من غار حراء يتلو آيات الوحى .

قال « الوليد بن المغيرة » المخزومى :

ـ أينزل القرآن على محمد . وأترك وأنا كبير قريش وسيدها ؛ ويُترك « أبو مسعود عمرو بن عمير » سيد ثقيف ، ونحن عظيما القريتين ؟

وذاعت كلمته فى أهل القريتين ، مكة والطائف ، فتركتهم فى حيرة ، قد تشابه الأمر عليهم فى مقاييس العظمة التى تسمو بالمصطفى على عظيمى القريتين .

وتلقى المصطفى من كلمات ربه :

« بَلْ مَتَّعتُ هَؤُلاءِ وآباءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الحقُّ وَرَسُولٌ مُبين * ولما جَاءَهُمُ الحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ * وقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا القُرآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ، نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِى الحياةِ الدُّنْيَا ، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا ، وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ »

صدق الله العظيم

* * *

وكذلك أنكر « أمية بن أبى الصلت » أن يصطفى محمد بن عبد الله نبيًا . وكان أمية يرى نفسه أهلا لهذا الاصطفاء !

فى أخريات الجاهلية . كان ابن أبى الصلت من الفئة القليلة التى أنكرت عبادة الأوثان . وهم الحنفاء الذين لمحت فيهم مكة بقية ميراث من ذكرى دين إبراهيم الحنيف .

قالوا : ما حجر نطوف به لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع ؟ يا قوم : التمسوا لكم ديناً فإن قومكم على سفه وضلال .

ثم تفرقت بهم السبل :

بعضهم مال إلى النصرانية وأقام فى الحبشة أو فى بلاد الروم .

وبعضهم قرأ الكتب فلم يدخل فى نصرانية ولا يهودية . واكتفى باعتزال الأوثان والذبائح التى تذبح قرباناً لها . ونهى عن قتل الموءودة ، وقال : أعبد رب إبراهيم .

ومن هؤلاء كان « أمية بن أبى الصلت » شاعر ثقيف وحكيمها .

وأمه من صميم البيت القرشى : رقية بنت عبد شمس بن عبد مناف ، الجد الثالث للمصطفى . لم يذهب أمية إلى روم أو حبشة ، وإنما قرأ كتب الدين ورغب عن عبادة الأوثان وأقام فى قومه يتنبأ لهم بدين جديد آن وقته ، ويتحدث فيهم عن نبى مرسل حان مبعثه ، ويشدو فى ليل الجاهلية بأشعار مرهصة بالنور المرتقب :

إن آيات ربنا ظاهرات ما يمارى فيهن إلا الكفورُ
حبس الفيل بالمغمس حتى ظل يحبو كأنه معقور
كل دين يوم القيامة عند الله إلا دين الحنيفة زور

* * *

وبزغ النور الذى بشر به أمية

وجاء دين التوحيد الذى أرهص به وشدا له .

وإذا به يرفض ويأبى ويستكبر ، ويجاهر المصطفى بأشد العداوة والبغضاء .

وانكشف موقفه :

لقد كان يبشر بنبى جديد وهو يرجو أن يكونه .

فلما تخطاه الاصطفاء إلى محمد بن عبد الله ، نكص على عقبيه كافراً بدين الحق .

وظاهرَ الوثنيةَ القرشيةَ فى حربها للدين الحنيف ، حتى مات على الكفر تدمغه كلمة المصطفى صلى الله عليه وسلم فيه :

« آمنَ لسانُه وكفر قلبُه »

بُعث المصطفى صلى الله عليه وسلم وثلاث من بناته حديثات عهد بالزواج فى أعز بيوت قريش :

كبراهن « زينب » تزوجها ابن خالتها هالة بنت خويلد : أبو العاص ابن الربيع بن عبد العزى ، حفيد قصى ، الجد الرابع للمصطفى .

و « رقية وأم كلثوم » عروسان لابنى عم المصطفى : عتبة وعتيبة ابنَى عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم ، من زوجه أم جميل بنت حرب .

أما صغراهن « فاطمة » فلم تكن بلغت سن الزواج بعد ، وقد ولدت قبل المبعث بخمس سنوات

وأسلمت بنات المصطفى ، وأزواجهن على الشرك .

وكره عليه الصلاة والسلام أن يخرج بناته المسلمات من بيوت أزواجهن الكفار ، ولم يكن الإسلام قد شرع بعدُ تحريم زواج مؤمنة بكافر ، ولا نزلت آيات القرآن فى التفريق بين المؤمنات وأزواجهن الكفار .

ووجدتها قريش فرصة سانحة لتؤذى المصطفى فى بناته ، قال بعضهم لبعض : « إنكم قد فرغتم محمداً من همه ، فردّوا عليه بناته فاشغلوه بهن »

ومشوا إلى أصهاره صلى الله عليه وسلم ، واحداً بعد الآخر ، فقالوا لكل منهم :

« فارقْ صاحبتك ونحن نزوجك أى امرأة من قريش شئت » .

فأما أبو العاص بن الربيع فأبى أن يفارق زوجه « زينب » ورد على قومه قائلا :

« والله ما أحب أن لى بها امرأة أخرى من قريش »

وأما ابنا عبد العزى أبى لهب : فطلقا رقية وأم كلثوم ؛ بإلحاح من امرأته أم جميل ؛ حمالة الحطب .

وخاب ظن قريش وكيدُ بنت حرب .

لم يشغل المصطفى ببناته عن دعوته ؛ ولم يشق عليه رجوع بنتيه : رقية وأم كلثوم إلى بيته ، وقد أراد الله بهما خيراً فنجاهما من معاشرة ولدى أبى لهب . ومحنة العيش مع أمهما حمالة الحطب .

ثم أبدلهما الله خيراً منهما :

تزوج رقيةَ « عثمانُ بن عفان » أحد السابقين الأولين إلى الإسلام ، وهاجر بها إلى الحبشة ثم إلى المدينة ، فلما ماتت يوم بدر ، خلفتها أختها « أم كلثوم » زوجاً لعثمان ذى النورين . . .

* * *

وفى أبى لهب وامرأته حمالة الحطب ، نزلت سورة المسد :

« تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَبِ * فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ »

* * *

بثست الكنية « أبو لهب » ، لعبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم .

قبل أربعين عاماً من المبعث ، تلقى عبد العزى بشرى مولد محمد ، ابن أخيه الراحل عبد الله بن عبد المطلب .

حملتها إليه مولاة له ، فأعتقها ببشراها !

ثم لما بلغ الوليد سن الرجولة واصطفاه الله سبحانه رسولا . لم يعد عبد العزى يعرف باسمه ، وإنما لصقت به كنيته أبو لهب .

لم يكتف الملعون بأن يرفض دعوة ابن أخيه ويرد إليه بنتيه طالقين .

بل تصدى له بادئ ذى بدء بالتكذيب والاستهزاء ، من الفترة الأولى التى كان المصطفى فيها يتهيب الجهر بدعوته فى الناس ، ويكتفى بتبليغها إلى من يأنس فيه الاستعداد للإصغاء والقبول .

* * *

حتى تلقى المصطفى أمر ربه :

« وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ * واخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المؤمِنِينَ * وَقُلْ إِنِّى أَنَا النَّذِيرُ المُبِينُ » .

فخرج صلى الله عليه وسلم حتى أتى الصفا فصعد عليه ، ونادى بأعلى صوته : « واصباحاه »

فلما اجتمع له القوم ابتدرهم قائلا :

« أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل ، أكنتم مُصَدِّقِىَّ » ؟

أجابوا : ما جربنا عليك كذباً قط .

قال : « فإنى نذير لكم بين يدى عذاب أليم »

عندئذ انبرى له عمه عبد العزى قائلا :

« تبًّا لك ! ألهذا جمعتنا ؟ »

ومضى على غلوائه ، فكان من أشد الكفار عداوة للإسلام وإيذاء للمصطفى عليه الصلاة والسلام .

* * *

ومن ورائه امرأته « أم جميل بنت حرب » أخت أبى سفيان . وقد غاظها أن تسمع ما نزل فيها وفى زوجها أبى لهب من القرآن ، فخرجت

تطلب المصطفى ، وفى يدها فهر : حجارة تملأ الكف .

وسمعت أنه صلى الله عليه وسلم فى الكعبة ، فاندفعت نحوه تهدد بالوعيد . لكن بصرها تخطى المصطفى فلم تره : ورأت أبا بكر هناك ، فسألته :

« أين صاحبك ؟ فقد بلغنى أنه يهجونى . والله لو وجدته لضربته بهذا الفهر . إنه إن يكن شاعرا فإنى لشاعرة »

وانصرفت وهى ترتجز :

مذمماً عصينا
وأمرَه قلينا
ودينه أبينا

قال أبو بكر الصديق للمصطفى :

— يا رسول الله ، أما تراها رأتك ؟

قال عليه الصلاة والسلام :

— ما رأتنى ! لقد أخذ الله ببصرها عنى .

* * *

وحدث مرة أن أخذتْ أبا لهب حميةُ الدم الهاشمى فغضب لما رأى من جور قريش على بنى هاشم الذين أبوا أن يخذلوا ابن عبد الله بن عبد المطلب ، وإن رفضوا دينه كراهة أن يعقوا أوثاناً وجدوا آباءهم لها عابدين .

فى خبر أن أبا سلمة المخزومى ، ابن برة بنت عبد المطلب ، استجار بخاله أبى طالب حين أراد قومه أن يفتنوه عن إسلامه . فمشى رجال من بنى مخزوم إلى أبى طالب فقالوا له :

— لقد منعت منا ابن أخيك محمداً ، فمالك ولصاحبنا تمنعه منا ؟

قال :

ــ إنه استجار بي ، وهو ابن أختي . فإن أنا لم أمنع ابن أختي لم أمنع ابن أخي .

وكان أبو لهب حاضراً ، فقال مغضباً :

ــ يا معشر قريش ، والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ . ما تزالون تتوثبون عليه في جواره من قومه . والله لتنتهُنَّ عنه أو لنقومَنَّ معه في كل ما قام فيه .

فآثروا الإبقاء على أبي لهب في حزبهم ، وقالوا له يسترضونه

ــ بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة .

لكن أبا عتبة لم يكره خذلان ابن أخيه ! أعشى سحر أم جميل بصره وأمات مروءته ونخوته ، فتسلط بالأذى على المصطفى ومن اتبعه . فيقول « الأحوص » الشاعر الأنصاري في حمالة الحطب ، امرأة أبي لهب :

ما ذاتُ حبلٍ يراه الناس كلهمُ
وسط الجحيم ولا يخفى على أحدِ
كلُّ الحبال ، حبال الناس ، من شعَرٍ
وحبلُها وسْطَ أهلِ النار من مَسَدِ

* * *

ضاقت بهم ساحة البيت الحرام ، وقد تجمعوا هناك يهددون ويتوعدون . فيكاد من يراهم يحسبهم محتشدين تأهباً لقتال . .

وأقبل العدو . فرداً أعزل !

أقبل المصطفى عليه الصلاة والسلام يمشي حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفاً بالكعبة . لا يُلقي إليهم بالا .

وقصرت عنه أيديهم ورماحهم ، وطالت ألسنتهم يغمزونه ببعض القول !

ومضى في طوافه . فكلما مر بهم تطاولت ألسنتهم بالغمز واللمز ، حتى أتم الطواف فواجههم فرداً . ليس معه سلاح غير إيمانه وكلمات ربه .

وقال كلمة ، وقعت عليهم كالصاعقة فما منهم رجلٌ إلا كأن على رأسه طائراً وقع . .

وانكمشوا متضائلين ، حتى ليقول مَن كان أعلاهم هديراً وأنكرهم صوتاً :

« انصرف يا أبا القاسم فوالله ، ما كنت جهولا »

وانصرف أبو القاسم عليه الصلاة والسلام ، فما كاد يغيب عن أبصارهم حتى عاد أفراد القطيع أسوداً غضاباً ، يقول بعضهم لبعض متلاومين :

ـ ذكرتم ما أصابكم من أمر محمد ، حتى إذا باداكم بكلمةٍ مما تكرهون ، تركتموه ؟

وأجمعوا أمرهم من جديد ، على لقاء العدو . .

* * *

فلما كان الغد وجاء المصطفى بصحبه أبو بكر ، لم يمهلوه حتى يلقاهم بكلمة من كلمات ربه ، بل وثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به يقولون متوعدين :

ـ أنت الذى تقول كذا وكذا ؟

وأعادوا عليه ما قال فى إنكار أوثانهم وتسفيه عقولهم وضلال آبائهم

والمصطفى يجيب :

« نعم ، أنا الذى أقول ذلك » .

وهموا به يتجاذبون رداءه ، فقام أبو بكر دونه يدفعهم عنه ويقول :

ـ أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله؟

فالتفت أسُودُ القطيع إلى أبى بكر يَجبِذون لحيته ويتكاثرون عليه ، فما تركوه يومئذ إلا وقد صدعوا فرْقَ رأسه !

* * *

وبدا لقريش أن توفد رجالاً منها إلى أبي طالب : عم المصطفى وشيخ بني هاشم . لعلهم يستطيعون أن يقنعوه بأن يحمل ابن أخيه على أن يكف عن دعوته التي فرقت كلمتهم ومزقت جمعهم .

ومشى وفدهم إلى أبي طالب فقالوا في تودد :

ـ يا أبا طالب : إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا . فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلي بيننا وبينه ؛ فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه ، فنكفيكه .

فقال لهم أبو طالب قولا رفيقاً وردهم رداً جميلا ، فانصرفوا عنه وهم يرجون أن ينتهي هذا الأمر الذي أرق ليلهم وشغل نهارهم .

* * *

لكن المصطفى مضى على ما هو عليه ، يظهر دين الله ويدعو إليه . حتى ضَرِيَ الأمر بين المسلمين والمشركين تباعداً وتضاغناً ، ولم يعد لقريش حديث إلا عن المصطفى صلى الله عليه وسلم ، يحض بعضهم بعضاً عليه .

وعاودوا الكلام مع عمه ، فقالوا :

ـ يا أبا طالب ، إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا . وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين .

وعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم تطاوعه نفسه على خذلان ابن أخيه . . .

وجاء المصطفى فسمع حديث عمه عن شكوى القوم ، ثم قال :

« يا عم ، إني أريدهم على كلمة واحدة ! »

قالوا بصوت واحد :

ـ كلمة واحدة ؟ نعم وأبيك ، وعشر كلمات ! فما هي ؟

قال : « لا إله إلا الله »

فانتفضوا مذعورين وخرجوا غضاباً ينفضون ثيابهم ويهزون رءوسهم وهم يقولون :

أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلهاً واحدًا ؟ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَاب !

* * *

قال له عمه بعد خروجهم :

ــ يا ابن أخى ، أبق علىّ وعلى نفسك ، ولا تحمّلنى من الأمر ما لا أطيق .

رد المصطفى ، وقد ظن أن عمه قد ضعف عن نصرته :

« يا عم ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلكَ فيه ، ما تركته » .

واستعبر حتى لم يملك دمعه ، وهو يوشك أن يفارق عمه الذى كان له أباً وكافلا وراعياً وصديقاً .

ناداه عمه وقد رآه يمضى حزيناً أسفاً :

ــ أقبلْ يا ابن أخى .

فأقبل عليه الصلاة والسلام ، فقال له عمه :

ــ اذهب يا ابن أخى فقلْ ما أحببتَ ، فوالله لا أسلمك لشىء أبداً !

عرفت قريش أن أبا طالب لن يتخلى عن نصرة ابن أخيه ولن يخذله . فليس لها إليه من سبيل إلا أن تخوض حرباً مع بنى هاشم .

وفى سورة غيظها وقهرها . زيّن لها سفهها رأياً أحمق : ماذا لو أعطت أبا طالب فتى من فتيانها بديلا من محمد ابن أخيه ؟

وليكن هذا البديل « عمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومى » زين شباب آل مخزوم فتوةً وجمالاً وعقلاً .

وقبل عمارة . رجاء أن تنحسم به الفتنةُ التى مزقت قريشاً !

وبقى أن يرضى أبو طالب !

* * *

ومشوا إليه بعمارة بن الوليد فقالوا له :

ـ يا أبا طالب ، هذا عمارة بن الوليد : أنهد فتى فى قريش وأجمله ، فخذه فلك عقلُه ونصره . واتخذه ولداً فهو لك ، وأسلمْ إلينا ابن أخيك هذا الذى قد خالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومك وسفه أحلامهم ، فنقتله فإنما هو رجل برجل !

ولم يصدق أبو طالب سمعه !

كيف بلغ بهم السفه أن يعرضوا عليه هذا الرأى الأحمق ؟ لقد أضاعت قريش رشدها ورب الكعبة !

قال فى تؤدة :

ـ والله لبئس ما تساوموننى : أتعطوننى ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابنى تقتلونه ؟ هذا والله ما لا يكون أبداً .

قال له المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف :

ـ والله يا أبا طالب . لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكرهه . فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً .

ورد أبو طالب على المطعم ، حفيد عبد مناف بن قصى :

ـ والله ما أنصفونى ، ولكنك قد أجمعت خذلانى ومظاهرة القوم علىّ ، فاصنع ما بدا لك .

وانصرف القوم على يأس .

وكذلك نفض أبو طالب يده من بنى عمومته : آل عبد شمس ونوفل . ومن عشيرته وذوى قرباه فى تيم ومخزوم وزهرة ؛ وأدرك أن القوم قد تظاهروا على من يمنعون محمداً ، من بنى عبد المطلب وبنى هاشم . . .

ووثبت القبائل من قريش على من فيها من أصحاب المصطفى الذين أسلموا معه ، يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم . . .

وبقى بنو هاشم على نصرة محمد بن عبد الله ؛ لم يشذ عنهم غير « أبى لهب » عدو الله الملعون . .

* * *

الدنيا ليل . .

ومكة مؤرقة بسهدها تشهد ائتمار قريش بالمصطفى ومن معه . .

لا عن ارتياب منها فى صدقه وأمانته ؛ ولكنها خافت أن تفقد الوثنية سلطانها على العرب . وعليها كانت قريش تعتمد فى ترسيخ نفوذها وتضخم ثروتها ؛ منذ جعلت المواسم الدينية للحج مواسم للتجارة .

وهذا الموسم على وشك اقتراب ، ومحمد يجهر بدعوته لا يبالى أحداً . وقد سمعت قريش ما تلاه من كلمات ربه ، فأدركت من فورها أنها المعجزة التى لا يملك أى عربى يصغى إليها ، أن يصرف عنها سمعه وقلبه وضميره .

فإن خلّتْ قريش بين محمد وبين القبائل الوافدة على الموسم يتلو فيها القرآن ، فإن العرب لن يترددوا فى الإيمان بصدق نبوته ، عن يقين بأن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من قول البشر .

* * *

وفى دار الندوة بمكة ، حيث اعتادت قريش من عهد جدّها قُصَىّ ابن كلاب أن تعقد فيها مجالسها كلما أهمها أمر واحتاجت فيه إلى المدارسة وتبادل الرأى ، اجتمع نفر من طواغيت قريش وقام فيهم « الوليد ابن المغيرة المخزومى » وكان ذا سن وشرف فيهم ، فقال :

« يا معشر قريش . إن وفود العرب ستقدم عليكم وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً » .

قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقُلْ . وأقم لنا رأياً نقول به .

قال : بل أنتم فقولوا أسمع .

قالوا : نقول كاهن .

ورد عليهم : لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه .

قالوا : فنقول ، مجنون !

ورد عليهم : ماهو بمجنون . لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته .

قالوا : فنقول ، شاعر

ورد عليهم : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وقصيده ، وهزجه وقريضه ، ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر

قالوا : فنقول ، ساحر .

ورد عليهم : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ، ولا عُقدهم .

وغُلبوا على أمرهم لا يدرون ماذا يقولون فى المصطفى ومعجزته فسألوا الوليد :

— فما نقول يا أبا عبد شمس ؟

أجاب : والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذْق وإن فرعه لجناة . وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرف أنه باطل . وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : ساحر ، جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته .

* * *

وانفض المجلس بعد أن أجمعوا أمرهم على أن يترصدوا للوفود على مداخل مكة ، فيأخذوا سبل الناس لا يمر بهم أحد إلا حذروه أن يسمع ما يتلو محمد من كلام هو السحر .

والمصطفى يتلو من آيات ربه :

« ن . وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ

بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ * فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ . . »

* * *

وأشفق أبو طالب أن يظاهر عامة العرب قومه على ابن أخيه ، فيجتمعوا ألباً عليه وعلى من ينصره من بنى هاشم ؛ فأنشد فى الموسم قصيدة مطولة يتعوذ فيها بحرم مكة ومكان المصطفى منها ؛ ويعتب على أشراف قومه ناشداً مروءتهم . ومعلناً فى الوقت نفسه أنه لن يخذل ابن أخيه ولن يتركه لشىء أبداً حتى يهلك دونه .

وصدرت القبائل من ذلك الموسم بأمر المصطفى ، فانتشر ذكره فى بلاد العرب .

* * *

أقبل الفارس عائداً من رحلة صيد . .

قد توشح قوسه وأطلق عنان فرسه ، حتى إذا دنا من البيت الحرام ترجل إجلالا للكعبة ، ثم انطلق متمهلا فى زهو وشموخ . . .

وفى طريقه إلى بيته مرّ بأندية قريش يتلقى حيثما سار ، تحية الإعجاب بفتوته وفروسيته .

وازدهاه أن ترى فيه قريش ، حمزةَ بن عبد المطلب ، أعز فتى فيها وأشدها شكيمة .

* * *

وقُرْبَ الصفا ، استوقفته مولاة لعبد الله بن جدعان التيمى ، فتمهل وألقى إليها بعض سمعه ، وفى ظنه أن الفتاة مأخوذة ببهاء فتوته .

قالت وهى تسدد إليه نظرة ثاقبة :

ــ يا أبا عمارة ، لو رأيتَ ما لقى ابنُ أخيك محمد آنفاً من أبى الحكم ابن هشام ؟ وجده هاهنا جالساً فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف لم يكلمه محمد ، صلى الله عليه وسلم .

ولم يرد عليها الفارس بكلمة .

لوى عنان فرسه وقد احتمله الغضب ، فلم يتوقف حتى بلغ البيت العتيق ، ولمح أبا جهل بن هشام جالساً هنالك بين القوم يتشدق بما آذى به المصطفى . فشق حمزة طريقه إليه صامتاً لا يتكلم ، إلى أن قام على رأسه فرفع قوسه وشجه بها شجة منكرة وهو يقول متحدياً :

« أتشتم محمداً وأنا على دينه أقول ما يقول ؟ فرُدّ ذلك علىّ ، إن استطعت ! »

وغشى القومَ دوار ما كادوا يفيقون منه حتى أدركوا أن السهم قد نفذ !

أسلم « حمزة » . وكان حتى تلك اللحظة على دين آبائه ؛ وعرفت قريش أن محمداً ازداد به عزًّا ومنعة . فلن يلبث حمزة أن يدخل المعركة بينه وبين المشركين ، فارساً لا يلحق به غبار ، وأسداً لا يُغلب .

* * *

ومضى حمزة فبات ليلته مؤرقاً ، يدعو الله أن يشرح صدره لهذا الدين الذى دخل فيه ، مدفوعاً بشهامته ومروءته ونجدته .

حتى تنفس الصبح ، فغدا حمزة إلى الكعبة فما استقبلها إلا وقد اطمأن قلبه وتفتح لنور الحق .

وسعى من فوره إلى بيت ابن أخيه المصطفى فبايعه .

ثم خاض معه معركته الباسلة ، أسدَ الله وأسدَ رسوله . وبسيفه الصارم المنصور جندل رءوساً لطواغيت قريش يوم بدر ، ومن بعده قاتل يوم أحد حتى اغتالته حربة غادرة سددها إليه « وحشى » بتحريض من هند بنت عتبة . ورقصتْ هند على مصرع الفارس البطل ، وانتزعت كبده فلاكتها .

وذهبت هند فى تاريخ الإسلام بلقب آكلة الأكباد . . .

وذهب الفارس المؤمن البطل بلقب سيد الشهداء !

* * *

الأيام تمضى ...

وحزب الله يزداد على الأذى والاضطهاد قوة وثباتاً ، وقريش تكاد تموت بغيظها ، وما يبدو على المصطفى وأصحابه بادرة ضعف أو تردد .

وفى نادى قريش . كان الزعماء يتدارسون الموقف الصعب ، حين لمحوا المصطفى يأخذ طريقه إلى المسجد الحرام . وحيداً ليس معه صاحب .

قال لهم « عُتْبَة بن ربيعة بن عبد شمس » .

ــ ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ، ويكف عنا ؟

قالوا وقد داخلهم الخوفُ من إسلام حمزة بن عبد المطلب :

ــ بلى يا أبا الوليد ، فقم إليه فكلمه . .

وقام عتبة حتى جلس إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم فقال له متلطفاً متوددا :

ــ يا ابن أخى ، إنك منا حيث قد علمتَ من السِّطة ــ الصميم ــ فى العشيرة والمكان فى النسب . وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به مَن مضى من آبائهم . فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها .

قال صلى الله عليه وسلم :

« قل يا أبا الوليد ، أسمع »

وقال أبو الوليد :

ــ يا ابن أخى ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر

مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا . وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك . وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا . وإن كان هذا الذى يأتيك ، رئيًّا تراه لا تستطيع ردّه عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ؛ فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوَى منه .

سأله المصطفى :

« أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ »

قال : نعم .

قال المصطفى : فاسمع منى .

وتلا صلى الله عليه وسلم آيات من سورة فُصِّلَت :

« بِسْمِ اللهِ الرحمٰن الرحيم . حٰمٓ ، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ، بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ، وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِى آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ، قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَىَّ أَنَّمَا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ . وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ . . . »

وكان « عتبة » ينصت لها وقد ألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع من المصطفى ، فلما انتهى صلى الله عليه وسلم إلى قوله تعالى من هذه السورة :

« وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ » .

سجد عليه الصلاة والسلام ، ثم قال لعتبة :

« قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك »

* * *

ومضى « عُتبة » مأخوذاً بما سمع ، حتى إذا دنا من مجلس أصحابه عرفوا أنه جاء بغير الوجه الذى ذهب به ، فلما جلس إليهم سألوه :

— ما وراءك يا أبا الوليد ؟

أجاب : ورائى أنى قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط . والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ! يا معشر قريش ، أطيعونى واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم . فإن تُصبه العرب فقد كُفيتموه بغيركم ، وإن يَظْهَرْ على العرب فمُلكه مُلككم وعِزُّه عزكم وكنتم أسعد الناس به .

قالوا جميعاً :

— سحرَكَ والله يا أبا الوليد بلسانه .

ورد عليهم :

— هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم . . .

وبقي مع ذلك ، على دينهم ودين آبائهم !

* * *

obeikandl.com

أسلم النهار أنفاسه مرهقاً مكدوداً . كأنه يتعجل الليل ليسدل ستاراً من ظلامه على المشهد الفاجع للمؤمنين من موالى قريش . وقد شدتهم بوثاق إلى جمر الصخور الملتهبة فى لظى الرمضاء ، لعلهم يرتدون عن الدين الحق . .

وبدا لقريش ، وقد غربت الشمس ، أن تدعو محمداً إلى مجلس زعمائها لعله يلين .

لقد فشلت المفاوضات مع عمه أبى طالب فلم يكفه عنهم ولم يسلمه إليهم . وفشلت كذلك المساومة التى عرضها عليه أبو الوليد عتبة بن ربيعة . وبقى أن يجربوا مواجهته لرءوسها مجتمعين : فيخاصموه حتى يعذروا فيه ...

وحشدوا له فئة منهم ، أعلاهم فى قومهم كلمة ، وألدهم فى الجدل والخصومة ، فيهم : عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب ، والنضر بن الحارث بن كلدة ، وأبو البخترى بن هشام ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل بن هشام ، والعاص بن وائل ، وأمية بن خلف . . .

ولبى المصطفى دعوتهم ، فجاء سريعاً إلى حيث أخذوا مجلسهم بظهر الكعبة ، وهو يرجو أن يكونوا قد ثابوا إلى رشدهم . وكان حريصاً على هداهم ، يعز عليه عنتهم وضلالهم .

قالوا : يا محمد ، إنا قد بعثنا إليك لنكلمك . وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك : لقد شتمت الآباء وعبت الدين وشتمت الآلهة وسفهت الأحلام وفرقت الجماعة ، فما بقى أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك .

ومضوا فى الحديث فعرضوا عليه ما سبق أن عرضه عليهم وافدهم

إليه « عتبة بن ربيعة » من مال وسيادة وملك وطب . . . .

وردّ المصطفى عليه الصلاة والسلام :

« ما بي ما تقولون . ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم . ولكن الله بعثني إليكم رسولا وأنزل عليّ كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً . فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم . فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة . وإن تردوه عليّ ، أصبرْ لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم » .

قالوا مقترحين ، يريدون إعناته :

— يا محمد ، فإن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضناه عليك ، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلداً ولا أقل ماء ولا أشد عيشاً منا . فسَلْ لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به ، فليُسيِّر عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، وليفجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا مَن مضى من آبائنا — وليكن فيمن يبعث لنا منهم « قصيّ بن كلاب » فإنه كان شيخ صِدْق — فنسألهم عما تقول : أحق هو أم باطل ؟ فإن صدقوك وصنعت لنا ما سألناك ، صدقناك وعرفنا به منزلتك من الله ، وأنه بعثك رسولا كما تقول . .

رد المصطفى على مقترحاتهم :

« ما بهذا بعثت إليكم . إنما جئتكم من الله بما بعثني به ، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم . فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تَردُّوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم » .

قالوا :

— فإذا لم تفعل هذا لنا فخُذْ لنفسك : سلْ ربك أن يبعث معك ملكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك . وسله فليجعل لك جناناً وقصوراً

وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغي — فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم ، وتلتمس المعاش كما نلتمسه — حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك . إن كنت رسولا كما تزعم .

وقال المصطفى كلمته :

« ما أنا بفاعل ، وما أنا بالذى يسأل ربه هذا ، وما بُعثت إليكم بهذا . ولكن الله بعثنى بشيراً ونذيراً ، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علىّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم » .

ولجوا فى العناد فقالوا :

— فأسقط السماء علينا كسفاً كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ، فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل .

ورد المصطفى :

« ذلك إلى الله ، إن شاء أن يفعله بكم فعله »

قالوا : يا محمد . أفما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ونطلب منك ما نطلب ، فيتقدم إليك فيعلمك ما تراجعنا به ويخبرك ما هو صانع فى ذلك بنا إذ لم نقبل ما جئتنا به ؟ إنه قد بلغنا أنك إنما يُعلمك هذا رجل* باليمامة يقال له الرحمن ! وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً ، فقد أعذرنا إليك يا محمد ، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا : فلن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا . . .

وأيقن المصطفى أن معنى للمضى فى ذلك الجدل العقيم ، فقام عنهم ، فقام معه ابن عمته عاتكة : عبدُ الله بن أبى أمية بن المغيرة المخزومى ، وقال له :

— يا محمد . عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم . ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ويصدقوك فلم تفعل . ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل . ثم سألوك أن تعجل لهم بعض ما تخوفهم من العذاب فلم تفعل . فوالله لا أومن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها . ثم تأتى معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول ! وايمُ والله لو فعلت ذلك ما ظننتُ أنى أصدقك !

أكان يجدى مع مثل هذا ، جهد إقناع ؟

وانصرف المصطفى إلى أهله حزيناً أسيفاً لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه . .

حتى آنسه الوحى بكلمات ربه :

« قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالجنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِه وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَذَا القُرآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا * وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِىَ بِاللهِ وَالمَلَائِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ

يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ . قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً * وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً * قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلاَئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً * قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً * »

صدق الله العظيم

* * *

هل كان الكفار من قريش ، فى تكذيبهم المصطفى وجحدهم معجزته ، بحيث يغيب عنهم أن هذا القرآن ليس من قول البشر ؟

فيم إذن عناؤهم بالإسلام وإعناتهم الرسول ، وحرصهم على أن يصدوا العرب عن سماع هذا القرآن ؟ .

وفيم كانت حيرتهم فيه لا يدرون بم يصفونه وإنهم لعلى يقين أنه ليس بشعر ولا سحر ولا كهانة ؟

وزعموا أن محمداً افتراه ؟ ولقد عاجزهم القرآن مجتمعين ، ومعهم من يُظاهرهم من جن ، قيل إنها كانت تلهم شعراءهم الفحول روائع القصيد ، وتحداهم أن يأتوا بسورة من مثل هذا القرآن ، فما استطاعوا .

« وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ

تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »

وإنه لكتاب عربى مبين . والعربية لغتهم والبيان طوع ألسنتهم ، وفيهم خطباء بلغاء وشعراء فحول ، لهم — فيما زعموا — توابع من الجن . وأعياهم مع ذلك أن يأتوا بسورة من مثله . كانت تعفيهم ، لو أن ذلك فى طاقتهم . من مثل هذا الجدل العقيم والمفاوضات والمساومات ، والمحاولات المضنية لصرف العرب عن سماع هذا القرآن ، والتسلط على المسلمين بالأذى والاضطهاد .

وتعفيهم مما كانوا يتوجسون بين لحظة وأخرى من صدام مسلح ، وحرب تحصد الرءوس وتأكل الأهل والعشيرة !

وهؤلاء هم ، بكل جبروتهم وطغيانهم ، يحتشدون لمقاومة بشر رسول ، معجزته كلمات من ربه ، يعلمون علم اليقين أنها ليست من قول البشر ، ويدركون حق الإدراك أنهم لو خلوا بين المصطفى والعرب يتلو فيهم هذا القرآن ، لما ترددوا فى الإيمان بالمعجزة . .

ماذا عساهم إذن صانعين بأوثانهم التى جعلت من مكة المركز الأكبر للعبادات والتجارة ؟ وبالأوضاع السائدة والتقاليد والأعراف الراسخة ، التى ضمنت لقريش نفوذها وثراءها ؟

بينهم وبين هذا القرآن حجاب ،

وفى آذانهم وقر ، وفى قلوبهم أكنة .

سجا الليل . وهجعت مكة وسكنت الأصوات فيها .

والمصطفى فى بيته قائم لربه يتهجد بالقرآن حتى انبلج الفجر فصلى ، والنور البازغ يتهادى من أفق المشرق وينشر سناه على الكون . .

وغير بعيد من بيت المصطفى ، التقى ثلاثة من مشركى قريش على غير موعد : أبو سفيان بن حرب الأموى ، وأبو جهل بن هشام المخزومى ، والأخنس بن شريق الثقفى . .

وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون فيم الخروج فى هذا الوقت ؟ وإذا كل واحد منهم قد تسلل فى الليل مستتراً بالظلام ؛ فبات ليلته قريباً من بيت محمد ليستمع منه وهو يصلى ويتلو القرآن . .

فتلاوموا ، وتعاهدوا ألا يعودوا إلى مثلها ، لئلا يراهم بعض السفهاء فيوقعوا فى نفسه شيئاً ؛ أو يقتفى خطاهم فتنفذ كلمات القرآن إلى سمعه وقلبه ، وتملك عليه أمره !

حتى إذا كانت الليلة التالية ، عاد كل رجل منهم خفية ، وفى حسابه أن صاحبيه على عهدهما ألا يخرجا إلى هذا الموقف . حتى طلع الفجر فتفرقوا فجمعهم الطريق . فتلاوموا وانصرفوا على مثل عهدهم الأول .

لكنهم عادوا خفية فى الليلة الثالثة ، فأخذ كل منهم مجلسه قريباً من بيت المصطفى فباتوا يستمعون القرآن حتى مطلع الفجر ، لايدرى أحد منهم بمكان صاحبيه ؛ فلما جمعهم الطريق تناكروا وتلاوموا ؛ وصمموا على

ألا يبرحوا مكانهم إلا على عهد وثيق : ألا يعودوا لمثلها أبداً ...

* * *

وأصبح الصبح . فخرج « الأخنس بن شريق » من بيته مبكراً يريد أن يحسم الأمر . فأتى أبا سفيان فى داره فبادره قائلا :

ــ أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد .

قال فى حيرة وتعثر :

ــ يا أبا ثعلبة . والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها .

ثم أمسك ، لم يزد ..

فتركه الأخنس لم يدر ما رأيه ، ومضى إلى أبى الحكم بن هشام يسأله الرأى فيما سمع من محمدبن عبد الله .

قال أبو جهل :

ــ ما سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرفَ : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا . حتى إذا كنا كفرسى رهان قالوا : « منا نبىٌّ يأتيه الوحىُ من السماء » فمتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه .

وانصرف الأخنس ، وقد انكشف له المستور من أمر أبى جهل . . .

* * *

تسامعت قريش بخروج سيد بنى دوس « الطفيل بن عمرو » قاصداً مكة فى الموسم ، فأسرع رجال منهم يستقبلونه على مشارفها قبل أن يدخلها . وهم يحسبون له ألف حساب : كان شاعراً شريفاً لبيباً مطاعاً فى قومه . فلو أنهم تركوه يستمع إلى القرآن لأسلم ، وأسلمت من ورائه قبيلة دوس كلها .

قالوا : يا طفيل . إنك قدمت بلادنا ، وهذا الرجلُ الذى بين أظهرنا قد أعضل بنا ، وقد فرق جماعتنا وشتت أمرنا ، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه وأخيه وزوجه ، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تكلمه ولا تسمعَنّ له شيئاً .

ثم ما زالوا به حتى أقنعوه ، فاطمأنوا إلى وعده وقد أجمع ألا يكلم محمداً ولا يسمع منه .

ومضى إلى الكعبة وقد حشا أذنيه قطناً ، يتقى به أن يبلغه صوتُ الداعى إلى الإسلام .

لكنه ما كاد يرى المصطفى قائماً يصلى عند الكعبة حتى اقترب منه ، فنفذت إلى سمعه كلمات من القرآن لم يفلح فى صدّها ماحشا به أذنيه .

* * *

قال يحدث نفسه : واثكلَ أمى ! والله إنى لرجل لبيب شاعر ما يخفى القولُ علىّ ، فما يمنعنى من أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ، فإن كان حسناً قبلته وإن كان قبيحاً تركته ؟

وانتظر حتى انصرف المصطفى إلى بيته فاتبعه ، ودخل عليه فقال :

— يا محمد ، إن قومك قد قالوا لى كذا وكذا . . . فوالله ما برحوا يخوفونى أمرك حتى سددت أذنى لئلا أسمع قولك . ثم أبى الله إلا أن

يُسمعنى قولَك فسمعتُه قولا حسناً . فاعرضْ علىَّ أمرك .

وعرض المصطفى عليهُ الإسلام وتلا عليه القرآن . فيقول الطفيل : « فلا والله ما سمعت قولا قط أحسن منه ولا أمراً أعدل منه . فأسلمت وشهدت شهادة الحق . وقلت : يا نبى الله . إنى امرؤ مطاع فى قومى وأنا راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام . فادعُ الله أن يجعل لى آية تكون لى عوناً عليهم فيما أدعوهم إليه » .

ودعا له المصطفى . .

* * *

ورجع الطفيل إلى قومه ووجهه يتألق بنور الإيمان ، فأقام فيهم يدعوهم إلى الإسلام ؛ حتى كانت غزوة خيبر ؛ فإذا بالطفيل بن عمرو الدوسى يفد على المصطفى فى دار هجرته ؛ ومعه سبعون أو ثمانون بيتاً أسلموا من قبيلة دوس .

وبقى الطفيل فى صحبة المصطفى حتى لحق صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى ، فقاتل « الطفيل » مجاهداً فى حرب الردة ، حتى قُتِلَ . رضى الله عنه ، شهيداً فى « اليمامة »

* * *

بلغ اضطهاد المشركين للمسلمين أقصى مداه ، وشق على المصطفى ما يصيب أصحابه من البلاء ، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم منه ولم يؤمر بقتال ، فنصح لهم قائلا :

« لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يُظلَم عنده أحد ، وهى أرضُ صِدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه » .

فخرج الفوج الأول من مهاجرة الحبشة ، وفيهم :

رقية بنت المصطفى ، وزوجها عثمان بن عفان .

وابن خالها ، الزبير بن العوام بن خويلد الأسدى . .

ومعهم من بنى هاشم : مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف

ومن بنى عبد شمس : أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، أخو هند وصهر أبى سفيان بن حرب ، تصحبه امرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو العامرى .

ومن بنى زهرة أخوال المصطفى : عبد الرحمن بن عوف .

ومن بنى مخزوم : أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال ، ابن عمة المصطفى : برة بنت عبد المطلب . ومعه امرأته أم سلمة ، هند بنت زاد الركب أبى أمية بن المغيرة المخزومى ، التى تزوجها المصطفى بعد وفاة أبى سلمة من أثر جرح أصابه فى أحد . . .

وفصل الركب من مكة مودِّعاً مغانى الصبا وديار الأهل ، وأخذوا طريق الجنوب وقد طاب لهم أن يكتووا بنار الغربة فى سبيل دين آمنوا به ، والتمسوا العوض عمن فارقوا من الأهل والأحباب ، فى هؤلاء الصحب الكرام ، رفاق السفر والإخوة فى الدين والهجرة . . .

* * *

ورحبت الحبشة بالمهاجرين الأولين ؛ ثم ما لبثت أن استقبلت أفواجاً جديدة من الصحابة المسلمين ؛ فيهم :

« جعفر بن أبي طالب » ابن عم المصطفى ؛ وامرأته أسماء بنت عميس.

وعمرو بن سعيد بن العاص الأموى ؛ وأخوه خالد .

وعبد الله بن جحش ؛ ابن عمة المصطفى : أميمة بنت عبد المطلب ، ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب .

وعامر بن أبي وقاص الزهرى ، والسكران بن عمرو العامرى ومعه امرأته « سودة بنت زمعة بن قيس » التى تزوجها المصطفى بعد عام الحزن . .

وبلغت عدتهم ثلاثة وثمانين رجلا ، خرجوا من ديارهم وأموالهم مهاجرين بدينهم ، وجاءت الأنباء من الحبشة أنهم وجدوا فيها داراً ومأمناً

* * *

وجُنّ غيظُ قريش ؛ فندبت اثنين من دُهاتها : « عبد الله بن أبي ربيعة ؛ وعمرو بن العاص بن وائل » لكى يفسدا ما بين النجاشى وبين المهاجرين المغتربين ؛ ويحتالا عليه حتى يخذلهم و يسلمهم إلى قومهم .

وبعثت معهما الهدايا مما يُستطرف من أسواق مكة ، رشوةً إلى النجاشى وبطارقته ، فانطلقا بها على مرأى ومسمع من المصطفى عليه الصلاة والسلام ؛ ومن بقى إلى جانبه فى مكة من أصحابه وآله .

وأشفق « أبو طالب » على مَن بأرض الحبشة — وفيهم ولده جعفر ، وابن عمه مصعب بن عمير ؛ وولدا ابنتيه برة وأميمة ، ورقية بنت المصطفى ، حفيدة أخيه عبد الله — من مكيدة عمرو وصاحبه ، فأنشد قصيدة يستثير فيها كرم النجاشي ومروءته ويحثه على أن يحمي جوارَه ؛

فهزت قريش رأسها لمّا سمعت نداءه ، وقال قائلها مستهزئاً : ما يبلغ صوت الشيخ أبى طالب من مكيدة عمرو وصاحبه ؟ وما تجدى الكلمات والأشعار ، مع الهدايا التى حملاها من مكة رشوة ، إلى النجاشى وبطارقته ؟

* * *

بدأ وافدا قريش بالبطارقة . فقبل كل بطريق هديته ووعد خيراً .

ثم تقدما إلى النجاشى فوضعا الهدايا بين يديه وقالا له :

— أيها الملك ، إنه قد ضوى إلى بلدك غلمان منا سفهاء ، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت . وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم ، فهم أبصر بهم وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه .

وأيد البطارقة المرتشون التماس الرجلين وقالوا للنجاشى :

— صدقا أيها الملك ، قومهم أعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم إليهما فيرداهم إلى بلادهم قومهم .

لكن النجاشى رفض أن يسلمهم قبل أن ينظر فى أمرهم ويسمع كلمتهم . وأمر باستدعاء رجال منهم فجاءوا وقد دعا النجاشى أساقفته ومعهم كتبهم الدينية .

* * *

وبدأ فسأل المهاجرين :

— ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا فى دينى ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟

فأجاب عنهم جعفر بن أبى طالب :

— أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسىء الجوار ويأكل القوى منا الضعيف .

فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه . فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان . وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء . ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات . وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً . وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام . . . فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله . فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً ، وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا . فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث . فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا فى جوارك . ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك . .

سأله النجاشى :

— هل معك مما جاء به عن الله من شىء فتقرأه علىّ ؟

فقرأ جعفر بن أبى طالب صدراً من سورة مريم ، لم تكد تُترجَم وتنفذ إلى سمع النجاشى حتى بكى خشوعاً وتأثراً ، وكذلك بكى أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم .

وقال النجاشى ، موجهاً خطابه إلى وافدى قريش :

« إن هذا — الذى سمعتُ — والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة . انطلقا ، فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يُكادون . »

* * *

وانصرفا . أما عبد الله بن أبى ربيعة — وكان أتقى الرجلين — فساوره ما يشبه القلق . لما رأى من خشوع النجاشى وأساقفته عندما سمعوا

القرآن ، وأخجله أن يكون هذا الملك الغريب أبرّ بالمهاجرين من قومهم وعشيرتهم .

وأما عمرو بن العاص ، فلم يجد فى الموقف ما يدعو إلى يأس : وله من ذكاء حيلته وبراعة مكره ودهائه ، ما يغريه بمعاودة الكرة !

قال لصاحبه :

ــ والله لآتينّ النجاشىّ غداً عنهم ، بما أستأصِلُ به خضراءهم .

وردّ عبد الله :

ــ لا تفعل ، فإن لهم أرحاماً وإن كانوا خالفونا .

فلم يبال عمرو تراجعَ صاحبه ، بل قال كمن لم يسمع رده :

ــ والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن «عيسى بن مريم» عبد !

* * *

وسعى فى الغد إلى قصر النجاشى ، فاستأذن فى الدخول وقال بعد أن حياه :

ــ أيها الملك ، إنهم يقولون فى عيسى بن مريم قولا عظيماً ، فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه .

وأمر النجاشى ، فجىء بجعفر بن أبى طالب وصحبه من وفد المهاجرين ، وقد سمعوا بمكيدة عمرو بن العاص ، وأجمعوا أمرهم على أنهم إذا سئلوا عما يقولون فى عيسى بن مريم ، لم يجيبوا بغير ما جاءهم به المصطفى من وحى ربه .

فلما اجتمع المجلس ، ابتدرهم النجاشى يسأل :

ــ ماذا تقولون فى عيسى بن مريم ؟

أجاب جعفر :

— نقول والله ما قال الله وما جاءنا به نبينا صلى الله عليه وسلم : هو عبد الله ورسوله وروحه . وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول .

فمد النجاشي يده فالتقط عوداً من الأرض ثم قال لجعفر وصحبه :

« والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلتَ هذا العُود . اذهبوا فأنتم آمنون بأرضي . من سَبَّكم غرم . وما أحب أن لي دَبراً — أي جبلاً — من ذهب . وأني آذيت رجلا منكم »

ثم التفت إلى بطارقته وقال وهو يشير إلى وافدي قريش :

« رُدوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها ، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رَدَّ عليَّ ملكي فآخذ الرشوة فيه . وما أطاع الناسَ فيَّ فأطيعهم فيه! »

* * *

فى انتظار عودة عمرو بن العاص وصاحبه ، التمست قريش غفوة تنسى فيها قهرها وهمها . وتستمرئ مذاق أحلامها برجوع المهاجرين مطرودين من جوار النجاشى . لتسومهم سوء العذاب فيكونوا عبرة لغيرهم من المسلمين . لا رجاء لأحد منهم بعدها فى مهرب ، وقريش قادرة على أن تدركهم حيثما ذهبوا . فكأنهم وإياها نابغة بنى ذبيان إذ يقول للنعمان ابن المنذر :

فإنــكَ كالليل الــذى هــو مُدركى
وإن خِلْتُ أن المنتأى عنك واســعُ

لكنها غفوة لم تطل !

خبرٌ تردد فى أحياء مكة ، هز مضاجع النائمين وأطار النوم من عيونهم ومزق أحلامهم بدداً . .

واسترابوا فى يقظتهم تحت صدمة المباغتة ، فخُيل إليهم أن مايسمعون عن « عمر بن الخطاب » لا يعدو أن يكون من أضغاث الأحلام وسراب الأوهام !

* * *

أيمكن أن يُسلم عُمر ؟

لابد أن من نقل الخبر، وهِمَ فيه كما وهمتْ « أمُّ عبد الله بن عامر » حين مر بها « عمر بن الخطاب » وهى وأهلها يترحلون إلى أرض الحبشة ، وقد خرج زوجُها عامر بن ربيعة فى بعض حاجاتهم .

قال لها عمر :

– إنه لَلانطلاقُ يا أم عبد الله !

فردت عليه . وقد ذكرتْ ما كانوا يلقون منه من البلاء والأذى :
— نعم والله . لنخرجنَّ فى أرض الله . آذيتمونا وقهرتمونا : حتى يجعل الله مخرجاً .

فلم يزد على أن قال :
— صحبكم الله !

فأحست منه رقةً لم تكن تراها من قبل . وتحدثت بذلك إلى زوجها عامر حين عاد . وقالت فيما قالت :

— يا أبا عبد الله . لو رأيتَ عمر آنفاً ، ورقته وحزنه علينا !
سألها مستخفًّا بسذاجتها وطيب قلبها :
— أطمعت فى إسلامه ؟
أجابت : نعم .
قال :
— فلا يُسلم الذى رأيتِ حتى يُسلم حمارُ الخطاب !

وتناقل المشركون كلمته ، وما منهم إلا وهو على رأى عامر بن ربيعة ، يأساً من إسلام عمر بن الخطاب ، لما كان يُرى من غلظته وقسوته على المسلمين .

وما كان الذى ظنته أمُّ عبد الله بن عامر ، من رقته : إلا وهما !

أو هذا هو ما تعلل به المشركون ، وهم يسمعون القصة الغريبة ، عن إسلام عمر بن الخطاب !

* * *

خرج متوشحاً سيفه ، وأخذ مسراه إلى « الصفا » وفى عينيه بريقٌ يتوهج .

فهناك عند الصفا بيت يعرفه . سمع أن محمداً يجتمع فيه مع رهط من صحابته . نحو أربعين . ليعبدوا ربّ محمد .

وفى طريقه إلى هذا البيت . لقيه « نُعيم بن عبد الله » فسأله :

— أين تريد يا عمر ؟

أجاب :

— أريد محمداً هذا الصابئ الذى فرّق أمر قريش وسفّه أحلامها وعاب دينها وسبّ آلهتها ، فأقتله .

قال له نعيم :

— غرّتك نفسك يا عمر ! أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً ؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟

سأله عمر مستريباً :

— وأىّ أهل بيتى ؟

أجاب :

— صهرك وابن عمك : سعيد بن زيد بن عمرو ، وزوجه : أختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه ، فعليك بهما .

* * *

صك الخبر مسمع عمر ، فعدل عن طريق الصفا وانطلق إلى بيت صهره وابن عمه ، يهدر بالغضب والوعيد .

فلما دنا من البيت ، توقف يصغى إلى تلاوة خافتة ، ثم اقتحم الباب فلمح أخته فاطمة تخفى صحيفة معها .

قال وهو ينقل بصره بينها وبين زوجها سعيد :

— ما هذه الهينمة التى سمعت؟ لقد أُخْبِرْتُ أنكما تابعتما محمداً على دينه !

وبطش بابن عمه سعيد بن زيد ، فقامت فاطمة لتكفه عن زوجها فضربها فشجّها . وعندئذ قالا له معاً . في تحدٍّ وإصرار :

ـ نعم ، قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك !

وفجأة ، تراخت قبضةُ « عمر » عن سعيد وكأنما أخذ بإيمانهما ، أو ندم حين رأى دم أخته يتدفق من أثر شجّته .

قال لها :

ـ أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون منها آنفاً ، أنظر ما هذا الذي جاء به محمد .

وأقسم لها بآلهته ، ليردّن الصحيفةَ إليها بعد أن يقرأها .

لكنها أبت عليه أن يمسّها حتى تطهر ، فأعطته إياها ، وفيها سورة طه . وقرأها عمر ، فبدا عليه الخشوع وقال :

ـ ما أحسن هذا الكلام وأكرمه !

* * *

وعاد السارى فاستأنف طريقه إلى « الصفا » .

وطرق باب البيت على المصطفى وصحابته ، فقام رجل منهم فنظر من خلل الباب ، ثم أقبل على المصطفى فقال وما يخفى فزعه :

ـ يارسول الله ، هذا عمر بن الخطاب متوشحا السيف .

قال عليه الصلاة والسلام : « ائذن له »

ونهض إليه المصطفى فلقيه فى الحجرة ، وسأله :

« ما جاء بك يا ابن الخطاب ؟ »

أجاب عمر :

ـ جئتك لأومن بالله ، وبرسوله ، وبما جاء من عند الله !

عندئذ كبّر المصطفى تكبيرة عرف منها أهل البيت من الصحابة ، أن « عمر قد أسلم ».

* * *

وسرى صداها فى أرجاء مكة ، معلناً إسلام عمر . فبات المشركون بين مصدق ومكذب . حتى غدا « عمر » عليهم وهم فى أنديتهم حول الكعبة . وقد تقدمه ابن معمر الجمحى فصرخ بأعلى صوته :

ــ يامعشر قريش ، ألا إن عمر بن الخطاب قدصبأ ؛

قال « عمر » من خلفه :

ــ كذب ! ولكنى أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله :

وثاروا إليه ، فواجههم فرداً لايباليهم ، ثم أخذ مجلسه قرب الكعبة وهو يقول :

ــ افعلوا ما بدا لكم ، فأحلف بالله أنّ لوكنا ثلاثمائة رجلٍ ، لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا !

* * *

لم يكن المشركون من قريش قد أفاقوا من صدمة إسلام عمر . حين عاد وافداهم إلى النجاشي . يحملان إلى مكة صدمة الخيبة وفشل المسعى.

فهل لم يبق إلا الحرب ؟

لقد رفض المصطفى كل ما عرضوه عليه من مقترحات ليكف عن دعوته ، وأبى أن يساوموه على دينه . .

وكذلك فشلت كل المفاوضات مع أبى طالب ، لكى يكف عنهم ابن أخيه ، أو يخلى بينهم وبينه .

والإسلام يفشو فى القبائل . برغم كل ما يلقى المسلمون من أذى وبلاء . .

وزعامة قريش تهتز وتترنح ، وتوشك أن تفقد سيطرتها على الموقف.

وقد أسلم حمزة بن عبد المطلب الهاشمى ، وأسلم عمر بن الخطاب التيمى . .

وهذا النجاشى يفتح بلاده لمن يهاجر من المسلمين ، ويؤمن كل من يلجأ إليه منهم ، ويأبى أن يمسهم أذى فى جواره . .

وبدأت قريش تتأهب لجولة حاسمة ، ولمح « أبو طالب » نذر الشر فدعا عشيرته الأقربين إلى منع محمد والقيام دونه ، فأجابوه جميعاً ، لم يخرج عليهم غير أخيه أبى لهب ، عبد العزى بن عبد المطلب .

لكن قريشا ترددت فى أن تخوض حربا مسلحة مع آل عبد المطلب وبنى هاشم ، وهم من صميم قريش . واستقر الرأى بعد طول مداولة على أن تفرض عليهم حصاراً اقتصادياً واجتماعياً لا يرحم .

واجتمع زعماء قريش . فائتمروا فيما بينهم على مقاطعة بنى هاشم وعبد المطلب : لا يصهرون إليهم ولا يبيعونهم شيئا ولا يبتاعون منهم . وسجلوا حلف التعاقد فى صحيفة علقوها فى جوف الكعبة توثيقا لحرمتها

وتوكيداً على أنفسهم فى التزامها .

وأقاموا على ذلك الحلف المشئوم زمناً ، سنتين أو ثلاثا ، لقى فيها المسلمون والهاشميون من جهد الحصار مالا يحتمل . وحيل بينهم ، وقد انحازوا إلى شعب أبى طالب ، وبين الطعام أو الكساء يشترونه من التجار الوافدين على أسواق مكة . وقد يأتى أحد المنحازين إلى الشعب سوق مكة يلتمس قوتاً يشتريه لعياله ، فيقوم « أبو لهب » ويصيح بالتجار :

« غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئاً ؛ وقد علمتم مالى ووفاء ذمتى » .

فيزيد التجار ثمن السلعة أضعافاً مضاعفة ، ويرجع أصحاب المصطفى ومن معه من آله ، إلى أطفالهم بالشعب ، وليس فى أيديهم طعام .

وبلغ منهم الجوع مبلغاً يصوره لنا قولُ « سعد بن أبى وقاص » بعد محنة الحصار بسنين :

« لقد جُعت حتى إنى وطئت ذاتَ ليلة على شىء رطب فوضعته فى فمى وبلعته ، وما أدرى ما هو إلى الآن » .

وكانت التمرة الواحدة ربما وقعت لاثنين منهم يقتسمانها ، فيكون أحسنهما حظاً من وقعت النواة فى قسمه ، يلوكها بقيةَ يومه !

وإنما كان طعامهم الخبط وورق السمر ، وما قد يأتيهم به سرًّا ، بعضُ ذوى رحمهم ، يدافع من المروءة والنجدة ، مستخفياً به من طواغيت قريش الساهرين على إحكام الحصار وإنفاذ وثيقة المقاطعة .

نقل ابن هشام فى (السيرة النبوية) أن أبا جهل بن هشام ، لقى « حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد » معه غلام يحمل قمحاً يريد به عمته « خديجة بنت خويلد » عند زوجها عليه الصلاة والسلام ، فى شعْب

أبى طالب . فتعلق به أبو جهل وقال : « أتذهب بالطعام إلى بنى هاشم والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة » .

ولحيهما أبو البخترى بن هاشم الأسدى ، فجاء يسأل أبا جهل : « ما لك وله ؟ »

أجاب : « يحمل الطعام إلى بنى هاشم »

فقال أبو البخترى : « وما فى هذا ؟ طعام كان لعمته عنده ، بعثت إليه فيه ، أفتمنعه أن يأتيها بطعامها ؟ خَلِّ سبيلَ الرجل » .

فرفض أبو جهل ، وتشادّا ، فأخذ أبو البخترى لِحْيَ بعير فضربه به فشجّه ، ووطئه وطئاً شديداً ، وحمزة بن عبد المطلب قريب يرى ذلك ويتأهب للبطش بأبى جهل . . وهم يكرهون مع هذا أن يبلغ مثل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

* * *

ثم كان لليل الحصار آخر . .

اهتزت ضمائر نفر من قريش ، فأنكروا الحلف المشئوم ، وكان أول من تكلم فيه وسعى فى نقضه « هشام بن عمرو بن ربيعة العامرى » ، وكانت تربطه ببنى عبد مناف صلة رحم ، فهو ابن أخى نضلة بن هاشم لأمه . وقد دأب طولَ مدة الحصار على أن يصلهم ، فكان يأتى ليلاً بالبعير قد أوقره طعاماً أو ثياباً ، حتى إذا بلغ به مدخل الشعب خلع خطامه من رأسه وضرب على جنبه ، فيدخل البعير الشِّعبَ على من فيه ، بما يحمل . . .

فلما طال عليهم جهد الحصار ، مشى « هشام بن عمرو بن ربيعة » إلى زهير بن زاد الركب . أبى أمية بن المغيرة المخزومى — وأم زهير عاتكة بنت عبد المطلب ، عمة المصطفى — فقال له :

« يا زهير . أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء . وأخوالك حيث علمت . لا يباعون ولا يبتاع منهم ، ولا ينكحون ولا يُنكح إليهم ؟ أما إني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم . ما أجابك إليه أبداً »

ففكر زهير مليًّا ثم سأل :

« ويحك يا هشام ! فماذا أصنع ؟ إنما أنا رجل واحد . والله لو كان معي رجل آخر لقمتُ في نقض الصحيفة حتى أنقضها » .

قال هشام : قد وجدتَ رجلا

فسأله : من هو ؟

أجاب : أنا

قال زهير : ابغِنا رجلاً ثالثاً .

فذهب هشام إلى « المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف » . فقال له :

« يا مطعم ، أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف ، وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه ؟ أما والله لئن أمكنتموهم من هذه : لتجدنهم إليها منكم سراعاً » .

فكان جواب مطعم كجواب زهير . .

وخرج هشام يبغي رجلا رابعاً ، فذهب إلى « أبي البختري بن هشام الأسدي » : فحدثه بمثل ما حدث به صاحبيه زهيراً ومطعماً . وسأله أبو البختري :

« هل أجد من يعين على هذا ؟ »

أجاب هشام :

« نعم . زهير بن أبي أمية زاد الركب ، ومطعم بن عدى : وأنا ، معك » .

فطلب إليه أبو البختري أن يبغي مؤيداً خامساً ، فذهب هاشم إلى « زمعة بن الأسود بن عبد المطلب بن أسد » . فكلمه في بني هاشم وذكر له قرابتهم منه وحقهم عليه . فأجاب زمعة .

وتواعد الخمسة على اللقاء ليلا بخطيم الحجون ، بأعلى مكة ، وهنالك أجمعوا أمرهم وتعاهدوا على القيام في أمر الصحيفة حتى ينقضوها ، واختاروا من بينهم « زهير بن أبي أمية » ليكون أول من يجاهر برفض الصحيفة ، في مجتمع القوم . .

فلما أصبحوا ، غدوا إلى أنديتهم . وغدا زهيرٌ عليه حُلَّة . فطاف بالبيت العتيق سبعاً ثم أقبل على الناس فقال :

« يا أهل مكة . أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يُباع لهم ولا يبتاع منهم ؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة » .

قال أبو جهل بن هشام ، وكان في ناحية من المسجد الحرام : « كذبتَ . والله لا تشق ! »

فردّ عليه صوت زمعة بن الأسود :

« أنت والله أكذبُ . ما رضينا كتابتها حيث كُتِبَت ! »

وتَمَنَّى أبو البختري :

« صدق زمعة ، لا نرضى ما كُتب فيها ولا نقر به » .

وأيدهما مطعم بن عدى :

« صدقتما وكذب من قال غير ذلك . نبرأ إلى الله منها ومما كُتب فيها » .

وتكلم هشام بن عمرو . فقال نحو ما قالوا . . .

عندئذ نقل أبو جهل بصره بين هؤلاء الرجال الخمسة ، ثم صاح مستريباً :

« هذا أمر قُضِيَ فيه بليل ، تُشوورَ فيه بغير هذا المكان ! »

فلم يلقوا إليه بالا ، وقام المطعم ، على مرأى من القوم ، وأبو طالب هناك ، قد انتحى ناحية من المسجد . فانتزع الصحيفة من مكانها فى جوف الكعبة لكى يشقها ، فإذا بالأرضة قد أكلتها . لم تدع منها إلا « باسمك اللهم ! » .

ووجمت قريش . .

* * *

ونهض أبو طالب يسعى إلى من فى الشِّعب بالبشرى ، وقد ذكر وهو فى طريقه من البيت العتيق ، بنيه الذين هاجروا إلى الحبشة ، فهتف منشداً وهو يرجو أن يبلغهم هنالك صدى من صوته :

ألا هل أتى بحرَّينا صنعُ ربِّنا
على نأيهم والله بالناس أرودُ

فيخبرهم أن الصحيفة مُزقت
وأنْ كل ما لم يرضه الله مفسَد

تراوحَها إفك وسحر مجمع
ولم يُلْفَ سحرٌ آخرَ الدهر يصعد

جزى الله رهطاً بالحجون تتابعوا
على ملأ ، يهدى لحزم ويرشد

قعوداً لدى خطم الحجون كأنهم
مقاولة ، بل هم أعز وأمجدُ

قضوا ما قضوا فى ليلهم ثم أصبحوا
على مهل إذ سائرُ الناسِ رُقَّدُ
وكناً قديما لا نُقِرُّ ظلامةً
ونُدرك ما شئنا ولا نتشدد
فيا لَقُصَىٍّ هل لكم فى نفوسكم
وهل لكمُ فيما يجىء به غدُ
فإنى وإياكم كما قال قائل :
لديك البيانُ لو تكلمتَ أسودُ »

وأيقظ صوته كلَّ من فى الشعب ، فهبوا من مضاجعهم يهللون للبشرى ، وهتف المسلمون منهم : « الله أكبر »
وباتوا ليلتهم وما تمس جنوبهم مضجعاً .

وأصبحوا ساعين إلى الكعبة فطافوا بها ، ثم آبوا إلى بيوتهم فى أم القرى ، ينتظرون ماذا يكون من قريش بعد أن تهاوى الحصار . . .

* * *

لكن محنة الحصار لم تنجل إلا لتسلم إلى ليل طويل لا يبدو له آخر . .

ماتت « السيدة خديجة » أم المؤمنين الأولى . وزوج نبيهم المصطفى وملاذه وسكنه ووزيره ، فى العاشر من رمضان سنة عشر من المبعث .

ومات فى العام نفسه « أبو طالب » عم المصطفى وكافله ومانعه ، ومَن كان له عضداً وحرزاً وناصراً على قومه .

فأحيا موتهما ما مات من أمل المشركين فى النصر بعد أن تهاوى الحصار . فعادت معركة الاضطهاد إلى أشد مما كانت عليه قبل عام الحزن . .

* * *

وأحس المصطفى أن الموقف لا يمكن أن يستمر هكذا ، ولا بد أن يتخذ متَّجهاً آخر .

وراح عليه الصلاة والسلام يمد بصره إلى ما وراء مكة ، يستوعب أبعادَ المناطق التى يحتمل أن تتجه إليها الأحداث .

* * *